الإمام عبد الحميد بن باديس ومنهجه في دراسة العقيدة الإسلامية

د. السعيد رحماني

أستاذ محاضر بكلية العلوم الإسلامية

-جامعة الجزائر-

مقدمة:

عبد الحميد بن باديس علم من أعلام الفكر الإسلامي في الجزائر وشخصية علمية فذة، قلما يجود الزمان بمثلها . فقد آتاه الله الحكمة وفصل الخطاب، وأكرمه بحسن البيان وبراعة اللسان، وقوة الحجة والبرهان.

وقد تفوق في مختلف ميادين المعرفة على كثير من أهل المغرب والمشرق وترك بصمات واضحة في ساحة الفكر والإصلاح والتربية والدعوة؛ إلا أنه لم يحظ بالعناية المطلوبة من قبل الباحثين الجزائريين، ولم يلق الاهتمام الكافي من قبل الدارسين وطلبة العلم في الجامعات الجزائرية عموما وكليات العلوم الإسلامية خصوصا إلا في المدة الأخيرة حيث بدأ اهتمام الباحثين يتوجه نحو الشخصيات العلمية الجزائرية بالبحث والدراسة. وقد انشغل الناس في بلدنا بدراسة المشاهير من المشرق، وتركوا الأعلام من المغرب ، ففات بذلك الناس خير كثير.

ولقد رأيت من الواجب أن أقدم هذه المحاولة قاصدا إبراز جانب مهم من

جوانب فكر ابن باديس الذي كان له فيه القدم الراسخة والباع الطويل ،والإسهام العلمي البارز، هو الجانب العقدي، وسأحاول من خلال هذه المحاولة إبراز أهم جوانب هذا الإسهام :

- أسباب الاهتمام بالموضوع :

إن الذي دفعني إلى القيام بهذه المحاولة عديد الأسباب أخص بالذكر منها ما يلي:

1 - إن علماء الجزائر وعلى رأسهم ابن باديس قد تركوا بإسهاماتهم العلمية ونشاطاتهم الإصلاحية وجهودهم الفكرية أثرا كبيرا في مختلف الأوساط العلمية والإصلاحية والتربوية على الصعيدين المغربي والمشرقي، ودليل ذلك ما نجده من المؤلفات والأطروحات والرسائل الجامعية هنا وهناك، وما نلمسه من تأثر الكثير من الباحثين بمناهجهم وأفكارهم وآرائهم.

2 - ما أراه من الحق لهؤلاء الأعلام علينا أن نخلد ذكراهم وأسماءهم ونعرف بتراثهم العلمي وجهودهم التربوية والإصلاحية ليبقوا مصدر إشعاع وإلهام وموضع فخر واعتزاز للأجيال اللاحقة.

3 - الوفاء لهم بالحفاظ على تراثهم وذكراهم لقاء ما قدموه وما بذلوه من الوقت والجهد والمال لخدمة الأمة والدين والوطن، وذلك أقل القليل الذي يمكن أن نقدمه لهم. والله أسال السداد والتوفيق .

مكانة العقيدة في الدرس الباديسي :

استغل ابن باديس بالتدريس والتكوين فأخذ ذلك منه كل جهده ووقته فانشغل عن

التأليف والكتابة . وكان من أهم الدروس التي كان يلقيها ويركز عليها ويحرص على أن تصل إلى عقول تلامذته ومريديه دروس العقيدة، والتي كان يحاول أبرزها في معظم دروسه وخطبه.ومن بين دروسه الكثيرة والمتنوعة التي داوم على تقديمها بأسلوبه المتميز درس العقيدة الذي أملاه على تلامذته، فكان هذا الإملاء هو السبب الذي حفظ لنا دروسه العقدية التي هي بين أيدينا اليوم

وكان المقصد الرئيسي الذي توخاه ابن باديس من وراء دروسه في التفسير والحديث والعقيدة أن يصل بالإنسان المسلم عن طريق التربية إلى مرتبة أخلاقية عالية، تمكنه من التفاعل مع المجتمع والواقع تفاعلا إيجابيا ومثمرا في ظلال عقيدة الإسلام السمحة الصحيحة، التي شُرعت لترشد الناس وتدلهم إلى ما فيه صلاحهم في الدنيا ، وسعادتهم في الآخرة.

وقد أدرك ابن باديس ـ وقد نذر نفسه ووقته وصحته للإصلاح ـ أن المسلمين في حالة ضعف كبير ، ففتش عن أسباب الضعف ، وكيف لا وهو المصلح الكبير والعالم الرباني الذي تولى مهمة إحياء الأمة الجزائرية.فما هي أسباب ضعف المسلمين في نظره؟

- أسباب ضعف المسلمين:

لقد لمس العلامة عبد الحميد بن باديس بعد دراسة واعية ، وتحليل عميق لحال الأمة الجزائرية ، أن صورة الإسلام في أذهان الناس ، وفي حياتهم تختلف عن الصورة الأصلية الصحيحة ، لما دخل عليها من عناصر غريبة ، وما اعتراها من تشويه وانحراف، غيرت معالم الإسلام الأساسية، وأدت إلى ضعف المجتمع الإسلامي ، ونفور الكثير

من الناس وابتعادهم عنه. فكيف يبدأ الإصلاح ومن أين يبدأ؟

تلك هي المسألة الأساسية التي تصدى العلامة الشيخ الإمام عبد الحميد ابن باديس لمعالجتها وحاول وضع الأساس الأول لإصلاح الأمة والنهوض بها والمتمثل في إصلاح العقيدة.

- إصلاح الجانب العقدي:

لما أدرك ابن باديس أن الخلل الأول الذي أصاب الأمة الجزائرية كان في العقيدة ،كان أول ما اتجه إليه ابن باديس من أجل تحقيق هدف منهجه الإصلاحي هو الجانب العقائدي، لأن العقيدة في رأيه هي اللبنة الأساسية في بناء الإسلام، والأساس الذي تقوم عليه حياة المسلمين، وهي التي تكون المنطلق الفكري لعقلية المسلم والأساس النفسي لسلوكه"[1]. فإذا صلحت العقيدة واتضح أمرها في عقول المسلمين واستحكمت في نفوسهم ، كانت الدافع والمحرك الذي يدفعهم نحو تغيير واقعهم، لأن الإنسان يتحرك وفق قناعات معينة، وبدافع داخلي.

أهمية الجانب الاعتقادي في حياة المسلمين:

إن العقيدة هي أهم قضية من قضايا الإسلام ، والانحراف إذا أصاب العقائد الإسلامية يكون أثره عظيما وخطره شديدا، لذلك توجه ابن باديس في أول ما توجه إليه بجهده وعمله الإصلاحي إلى إصلاح العقيدة الإسلامية.

ولما توجه ابن باديس إلى جانب العقائد الإسلامية وتأمل واقعها عند المسلمين، وجد بها اضطرابا كبيرا وخللا عظيما، وتراءت له حجبا كثيرة من آثار المناهج الكلامية، والمفاهيم الفلسفية المنطقية المجردة، التي ابتليت بها عقيدة الأمة، ففقد الإنسان المسلم نتيجة

لذلك الرؤية السليمة إلى الحياة ، وإلى دوره الرسالي فيها، ووقع في تناقضات كبيرة ومستمرة .وأضحى كائنا مشلولا، متوتر ،الفكر مشوه الشخصية خائر القوى ضعيف الكيان.

فبحث عن المخرج من هذا المأزق وسأل عن الطريق المؤدي إلى النجاة، فلم يجد ذلك لا في المناهج الكلامية القديمة، ولا في الطرق الفلسفية والمنطقية المجردة ، وإنما وجد أن السبيل القويم والمنهج السليم للخروج من هذا المأزق يكون بالرجوع إلى ما قرره القرآن الكريم، يقول ابن باديس موضحا هذه الحقيقة : "قلوبنا معرضة لخطرات الوسواس بل للأوهام والشكوك، فالذي يثبتها، ويدفع عنها الاضطراب، ويربطها باليقين هو القرآن الكريم "[2] .

فالقرآن الكريم يحمل من الأدلة المقنعة والشواهد المؤيدة ما يرضي العقل ويطمئن النفس ويشبع العاطفة، ويعود بالضمير إلى الإيمان والإذعان.

"فهو قادر بواقعيته ووضوح أدلته على التأثير في العقول وذلك راجع إلى ما له من جاذبية خاصة ، منشؤها ذلك التوافق الكامل مع أسلوب الناس الفطري في التفكير والشعور، والاستجابة الحقيقية لما تتطلع إليه نفوسهم في شؤون العقيدة والسلوك"[3] .

وقد استطاع ابن باديس بناء على ما توصل إليه أن المسلمين هم في أمس وأشد الحاجة في موضوع العقائد إلى دراسة القرآن دراسة حرة عميقة ومجردة عن التأثيرات والمؤثرات الخارجية، ومناهج الفلسفات والثقافات الأجنبية . وبناء عليه وجب على علماء المسلمين التوجه إلى القرآن الكريم ليستطلعوا معالم العقيدة الإسلامية الصحيحة وأسسها السليمة، ويستنبطوا منه الأدلة القوية والحج الدامغة الماثلة في كل

سورة من سوره وكل آية من آياته، وفي كل المتكامل الجامع المعجز، وفي بيان هذا الأمر يقول ابن باديس: " أدلة العقائد مبسوطة في القرآن الكريم بغاية البيان، ونهاية التيسير.. فحق على أهل العلم أن يقوموا بتعليم العامة لعقائدها الدينية، وأدلة تلك العقائد من القرآن الكريم، إذ يجب على كل مكلف أن يكون في كل عقيدة من عقائده الدينية على علم "(4) .

فقد أرسى القرآن الكريم منهجا متكاملا من العقيدة، جمع فيه بين العقل والعاطفة، فلم يلغ العقل، بل أعطاه دورا فعالا في البحث والتأمل، والنظر والتدبر في الآيات وفي الآفاق وفي الأنفس، لأن القرآن يدعوا إلى التوحيد والاعتقاد في ألوهية الخالق، القائم على الحجج العقلية المنطقية والبراهين الكونية؛ التي تفتح باب النظر والفكر، وتزيل الغشاوة والضلال والعمى على بصيرة الإنسان.

وهذا المنهج هو نفسه الذي ارتضاه ابن رشد ودعا إلى اعتماده في كتابة مناهج الأدلة في معرض حديثه عن مناهج الفلاسفة المتكلمين ونقده لهم حين قال: فإذا يجب أن لا يجعل مبدأ لمعرفة الله تبارك وتعالى وبخاصة الجمهور، فإن طريقة معرفة الله أوضح من هذه على ما سنبين من قولنا بعد "(5) .

- موقف ابن باديس من مناهج المتكلمين والفلاسفة :

لقد بينا فيما سبق أن ابن باديس يدعو إلى اعتماد منهج القرآن وطريقته في عرض العقيدة الإسلامية، لأن القرآن كما يقول: " بسط عقائد الإيمان بأدلتها العقلية القريبة القاطعة "(6) .

ويرى أنه من الأفضل ترك الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية، لأن الإعراض عن

طريقة القرآن وأدلته وأسلوبه في نظره، هو من قبيل هجر القرآن والإعراض عنه.يقول موضحا هذا الأمر: "الإعراض عن أدلة القرآن والذهاب مع أدلة المتكلمين الصعبة ذات العبارات الاصطلاحية من الهجر لكتاب الله وتصعيب طريق العلم إلى عباده، وهم في أشد الحاجة إليه"(7) .

ويبرر موقفه الرافض لهذه المناهج بكونها طرائق كلامية معقدة ذات الأشكال المتعددة والاصطلاحات الصعبة ؛ التي لا يفهمها الطلبة والخاصة، فكيف يفهمها العامة من الناس.

وعليه فالذي يهجر عقائد الإيمان بأدلتها القرآنية ويقول بأنها أدلة سمعية لا تحصل اليقين، ويأخذ بالطرائق الكلامية المعقدة وإشكالاتها المتعددة واصطلاحاتها الصعبة، إنما هو هاجر للقرآن ومخالف نهج سلف الأمة.

وإذا كان ابن باديس يحمل على علم الكلام ويرفض طرائقه فإنه فعل ذلك لإدراكه أنه" لم يبن على أسس سليمة، فأبتعد تدريجيا عن المصالح الحقيقية للمسلمين وشغل نفسه بقضايا فرعية، لم تنتج إلا تعميق الخلاف ،وإشعال نار الفتنة بين المسلمين في وقت هم أحوج ما يكونون فيه إلى الاتحاد والتعاون لدرء المخاطر المحدقة بهم والأطماع التي تهدد وجودهم وكيانهم"(8) .

وعلى الرغم من أن ابن باديس يرفض منهج المتكلمين والفلاسفة إلا أنه لم يشنع عليهم ولم يتهمهم بالزندقة والمروق من الدين، كما فعل بعض الأئمة وبعض أتباع الحركات الحديثة كالحركة الوهابية والجماعات السلفية التي تحرم دراسة علم الكلام، وتجرم دراسته، وتتهم من يعلمه ويتعلمه بالزندقة والبدعة ومخالفة منهج السلف

الصالح.

- مصدر العقيدة عند ابن باديس:

يدعوا بن باديس المسلمين (عامتهم وخاصتهم) إلى أن يتجهوا إلى القرآن الكريم ليأخذوا منه معالم العقيدة ويتبينوا أسسها ويستنبطوا أدلتها الماثلة في كل سورة من سوره، بل وفي كل آية من آياته، فأدلة العقائد كما يقول عليه رحمة الله: مبسوطة في القرآن الكريم بغاية البيان، ونهاية التيسير"[9].

وفي القرآن الكريم من الأدلة والمقنعة والشواهد المؤيدة وفيه من الواقعية ووضوح الأدلة وفيه من الجاذبية التي منشؤها ذلك التوافق العجيب والكامل مع الفطرة والاستجابة الحقيقية لما تتطلع إليه النفوس في شؤون العقيدة ما يرضي العقل ،ويؤثر فيه ويطمئن النفس ويقود الضمير إلى الإيمان والإذعان.

لأجل ذلك كله دعا ابن باديس أهل العلم لأن يقوموا بتعليم العامة العقائد الدينية وأدلتها من القرآن الكريم، فقال: فحق على أهل العلم أن يقوموا بتعليم العامة العقائد الدينية، وأدلة تلك العقائد من القرآن الكريم ، إذ يجب على كل مكلف أن يكون في كل عقيدة من عقائده الدينية على علم"[10].

كما يرى ابن باديس ـ ويشاطره في ذلك الرأي الكثير من علماء عصره ومن جاء بعدهم ـأن القرآن الكريم اعتنى عناية بالغة بأمور العقيدة وتصحيحها، واستفاض في تحديد معالم التوحيد من حيث أنه وصف الله تعالى بما يليق بجلاله، وبما ينبغي له، ونزهه عما لا يليق به ، وبذلك فهو قد أرسى منهجا متكاملا في العقيدة الصحيحة.

مكانة التوحيد وأقسامه عند ابن باديس:

إن التوحيد في نظر ابن باديس هو ركن الزاوية في الإسلام وهو الأصل الذي لا تكون النجاة ولا تقبل الأعمال إلا بوجوده ، وما أرسل الله رسوله إلا ليدعو إلى التوحيد ويذكر بحججه وأدلته، ولذلك نجد المنهج الباديسي في العقيدة يقوم على الأسس التالية:

أولا: التوحيد أساس الدين، فكل شرك في الاعتقاد أو في القول أو في الفعل فهو باطل مردود على صاحبه.

ثانيا: العمل الصالح المنبني على التوحيد به وحدة تكون النجاة والسعادة عند الله، فلا النسب ولا الحسب ،ولا الحظ بالذي يغني عن الظالم شيئا"[11].

ويقسم التوحيد إلى قسمين:

الأول: هو التوحيد العلمي: ويعني به الاعتقاد بوحدانية الخالق والإقرار له بالربوبية والألوهية ويتضمن أيضا النهي عن اعتقاد ربوبية سواه وهذا من باب العلم.

الثاني: التوحيد العملي: وهو الأمر بأن تكون العبادة مقصودة عليه وحده فمن وحدانية جل جلاله في ربوبيته وألوهيته علما وعملا فقد استكمل حظه من مقام هذا الأساس العظيم.

وبما أن التوحيد يكتسي أهمية بالغة وخطيرة في بنية العقيدة الإسلامية فإنه من الضروري تجديد عرض هده العقيدة ليتحقق الهدف منها فما هي الأسباب الداعية إلى هذا التجديد ؟

الأسباب الداعية إلى تجديد عرض الإسلام وعقائده اليوم:

هناك أسباب كثيرة دعت إلى وجوب إعادة النظر في كثير من المناهج التي كانت تعرض بها قضايا الإسلام وعقائده وأحكامه،وأصبح من الضروري الاستفادة من معطيات العلوم الحديثة، ومكتشفات الفكر الإنساني، وقد أشار إلى هذا الأمر بعض الباحثين المعاصرين كالترابي ومالك بن نبي وغيرهما، ومن أهم ما دعا إلى هذا التجديد ما يلي :

1 ـ إن توثق أسباب الاتصال بين العالم قد ضاعف من فرص الدعوة الإسلامية واستوجب علينا عرض أحكام الإسلام ومبادئه بمعايير التفاهم العقلي التي تقر بها لغير المؤمنين.

2 ـ أدى اتساع العلم بالطبيعة وتجلي الوحدة والإنسان في نواميسها إلى شيوع النظر المنهجي الفاحص والدراسة الشمولية لشؤون الحياة مما يتيح للمسلمين إذا ما أبرزوا نظام الإسلام بنهجه المتكامل وحكمته البالغة هداية المفكرين الضالين الذين زهدهم في الدين طقوس غير مفهومة وتقريرات غير معقولة وشتان تعاليم غير منظومة"[12]

3 ـ تأثر الكثير من المتعلمين والمثقفين المسلمين بما أنتجته الثقافة الغربية وما تركه إنتاج المستشرقين عن الإسلام .

وانطلاقا من هذا المنظور ومن هذه المعطيات الجديدة يرى ابن باديس أن علم التوحيد يجب أن يتطور وتجدد أساليبه وطرائق عرض مسائله وأدلته، وذلك بالاعتماد علىِ المصادر الأساسية والابتعاد عن استخدام الأقيسة المنطقية التي لم تعد تفيد أفهام الشباب ولا تناسب عقولهم، فالمسلم الذي يعيش في هذا العصر، يعيش ظروفا تختلف عن تلك التي عاشها غيره في الزمن الماضي، وعلى من يعرض العقائد الإسلامية أن يتبع

المنهج الذي يجعل علم التوحيد نافعا ومفيدا وفعالا في تثبيت عقائد الدين الإسلامي وجعلها مقنعة للعقل مرضية للوجدان مثمرة للعمل.

ولأجل تحقيق تلك الغاية التي رسمها لنفسه "فقد اعتمد على آيات الذكر الحكيم بشكل رئيسي فأوردها متتابعة متناسقة تكون لمن يتأملها ويمعن النظر فيها الدليل القاطع والحجة الساطعة ويكون فيها الحلول المرضية المقنعة لكل ما يجول في النفس البشرية من تساؤلات واستفسارات وما يعرض لها ن أوهام وشكوك"[13].

- وجود الله أمر مركوز في الفطرة الإنسانية:

يرى ابن باديس من خلال عرضه لمسائل العقيدة الإسلامية أن وجود الله أمر فطري مركوز في نفس الإنسان منذ خلقه، والإيمان بأنه خالق ومدبر للكون من الأمور التي يسلم بها كل إنسان عاقل قادر على التمييز ، حتى العرب الذين عاصرهم الرسول كانوا مع شركهم يعترفون بوجود الله "فالاعتراف بوجود خالق للكون يكاد يكون غريزة مركوزة في الفطرة، ويكاد لا يكون لمنكريه-عنادا-بنسبة عددية بين البشر"[14] كما يقول ابن باديس . إلا أن الذي حدث ويحدث في مراحل تاريخ البشرية الطويل والمتشعب هو أنّ أكثر المعترفين بوجوده قد نسبوا إليه ما لا يجوز عليه ولا يليق بجلاله من الصاحبة والولد والمادة والصورة والحلول والشريك في التصرف في الكون والتشريك في التوجه، والفراعة إليه والسؤال عنه، والاتكال عليه"[15] .وهذا هو بداية الانحراف في العقيدة.

الانحراف في العقيدة يصيب الصفات أكثر من غيرها:

إذا كان وجود الله تعالى ومعرفة ذلك الوجود هوأمر فطري مركوز في النفس الإنسانية، فإن الانحراف في العقيدة يصيب أول ما يصيب الإيمان بصفات الله تعالى

في تصور الأذهان فالإيمان بالصفات كما يقول الدكتور عبد المجيد النجار: يكون عرضة للشبه، ومحلا للتأثيرات من جهة التقليد، ومن جهة الهوى والشهوة، وهو بالتالي كثيرا ما يكون عرضة للانحراف بالغفلة والتناسي أو بالتغيير والتبديل أو بالاضطراب في فهم المدلول للصفة المعينة وفي استيعاب أبعادها المختلفة.

وقد توصل الكثير من المفكرين والفلاسفة بعقولهم إلى الإيمان بوجود الله لكنهم اضطربوا في تصور صفاته الإيمان به، وذلك مثل بعض فلاسفة اليونان الذين آمنوا بواجب الوجود لكنهم أثبتوا صفة العلم بالكليات دون الجزئيات وقال البعض إنه خلق العالم بالفيض فيما يشبه سلب الإرادة عنه، ذلك لأن العقل وحده لا يوصل إلى حقيقة الصفات كلها في وضوح ودقة مثلما يتوصل إلى حقيقة الوجود"[16] .

وتاريخ الديانات والعقائد يشهد بما لا يدع مجالا للشك أن الأقوام التي أرسل إليها الرسل، وأ نزلت إليها الكتب لم تكن في الغالب قد انحرفت في اعتقادها بوجود الله ،وإنما الذي أصابها هو الانحراف في فهم الصفات، فقد انحرف اليهود إلى التجسيم وتحول النصارى إلى التثليث ، وانحرف عرب الجاهلية إلى الوثنية، وكله انحراف على حقيقة صفة الوحدانية.

انحراف المسلمين الأكبر في العقيدة كان في الصفات:

لقد أدرك ابن باديس أن من بين الانحرافات التي أصابت العقيدة الإسلامية ما أصاب مبحث الصفات فقال: " فلم يصيب المسلمين انحراف في الإيمان بوجود الله تعالى، لكن بعضا منهم طرأ عليه الخلل في الإيمان ببعض صفاته في شمول حقيقتها، وصفاتها، وذلك مثل صفة الوحدانية والرزق والصفات الخبرية، وقد كان لذلك

الانحراف أثر في حياتهم كلها"[17]. لذلك رأى أن يصلح هذا الجانب الهام وآثر أن يستخدم الأسلوب القرآني." فقد توخى منهج القرآن في الاستدلال وزكى أسلوبه من الرد والنقد بما يتلاءم مع النفوس من فطرة وعقوبة"[18] لإدراكه أن النتيجة الوحيدة التي توصل إليها النظر الفلسفي والعقلي في بحث تلك المسائل التي تتعلق بالذات الإلهية والغيبيات لا تعدو كونها نظريات عائمة أسهمت إلى حد بعيد في إيصال العقل الإنساني إلى طريق مسدود ذلك... أن التجربة الدينية حين تتصل اتصالا وثيقا بالحقيقة وأي نظر فيها ينفصل عن النواحي الوجدانية الداخلية، ولا ينبع من داخلية النفس سيفشل حتما في الوصول إلى ماهيتها وحقيقتها"[19].

منهج الاستدلال على صفات الله عند ابن باديس:

لقد بين ابن باديس في دروسه عن العقيدة الإسلامية أن الألوهية تتلخص في أن الله هو الوجود الحق لذاته الذي لا يقبل وجوده العدم فهو القديم الذي لا بداية لوجوده، وهو الباقي الذي لا نهاية لوجوده، وهو سبحانه الوجود الذي سبق وجوده كل وجود"[20].

وهذه الحقائق ما كانت لتغيب عن العقل الإنساني إلا بما يتعرض له من النسيان والغفلة واتباع الشهوات والعناد والمكابرة.

والإنسان في الحقيقة لا يحتاج في معرفة الله إلى أكثر من التوجيه والتذكير، إلى ما بلغت نظره إلى ما غفل عنه من المعرفة" ولذلك فإن الأديان السماوية جاءت تركز في خطابها على التذكير بصفات الله أكثر من أنها تدعو إلى الإيمان بوجوده، إذ هي محل الانحراف والضلال في تصور الأذهان"[21] لذلك كان الأنبياء والرسل يوجهون

البشر ويحذرونهم من الغفلة عن معرفة الله تعالى ويذكرون بصفاته كالكرم والرحمة والمغفرة....

وإن المتأمل في طريقة ابن باديس يجد أنه يورد الآيات ويستدل بها على الصفات بما يوضح بأن النواة التي يدور حولها نظام الإقناع القرآني تنحصر في فكرة رئيسية هي أن الله تعالى يتصف بصفات الكمال المطلق والخير المطلق والقوة المطلقة، وقد خلق كل شيء وأخضعه لإرادته، وأن طاعته واجبة على الإنسان.

ويركز القرآن تركيزا شديدا على مسألة الوحدانية ويدعمها بمختلف الأدلة والبراهين القادرة على إقناع أعتى العقول وأكثرها صلابة وإنكارا أو جحودا.

ولا نجد في القرآن تركيزا على وجود الله كما نجده في مسألة الصفات والوحدانية، ففي القرآن من الشواهد المؤيدة والأدلة المقنعة ما يرضي العقول ويطمئن النفوس ويقود الضمائر إلى الإيمان والإذعان، فهو أي القرآن قادر على التأثير في عقول الناس بماله من واقعية ووضوح الأدلة، وما له من الجاذبية ولما له من التوافق التام مع الفطرة الإنسان وتفكيرها العقلي المنطقي السليم.

أهم الصفات التي توقف عندها ابن باديس :

لقد عمل ابن باديس على صياغة قضايا العقيدة وفق ما ارتضاه من منهج قائم على التبسيط والتيسير والوضوح؛ اقتداء في كل ذلك بما أدركه من منهج القرآن ،وهو الذي ظل طوال خمس وعشرين سنة يفسر القرآن ويوضح حكمه ومعانيه للناس ، وقد كان فيهم العامي والعالم، والبسيط والوسيط والمحيط بعلوم كثيرة ، فدفعه ذلك إلى نهج أسلوب جامع بين اللغة الجميلة البسيطة والوضوح اللازم والاختصار الذي يتطلبه الزمن

، ويفرضه العصر..يقول الدكتور عبد الكريم بو الصفصاف:" فقد عمل على تطوير علم العقائد وتقريبه من أذهان المسلمين، استجابة لتطورات العصر، ومتطلباته التي تلح على السرعة في الهضم والاستيعاب، والإدراك لمقاصد الأمور سواء في التوحيد أو في القضايا المتعلقة بأفعال البشر الأخرى"[22] هذا عن المنهج الذي اعتمده .

أما عن الأسلوب فيقول بو الصفصاف:" فنحن عندما نقرأ ما كتبه ابن باديس حول الربوبية والألوهية لا نبذل جهدا لفهم معانيه، وإدراك حقائقه لأنه مصاغ بأسلوب علمي لكنه مبسط وجميل " ويدلل على هذه الخصائص التي تميز أسلوب الشيخ بنص له يقول فيه :" هو الله الذي لا معبود غيره، ولا يستحق العبادة سواه، خالق المخلوقات كلها، والمالك لها، والمدبر لأمرها والمتصرف فيها من أصغر مخلوق إلى أعظم مخلوق هو عرشه العظيم الذي فاق كل ما نرى من عالم الشهادة".[23]

وقد تحدث الشيخ عبد الحميد الله تعالى بأسلوبه الذي بيناه فيما سبق ، والذي يربط فيه بين معاني الصفات وتجلياتها في مخلوقات الله ويحيل القارئ مباشرة على آيات القرآن ، ومن هذه الصفات ما يلي :

1 - صفة الوجود :

صفة الوجود هي أول الصفات التي بدأ بها ابن باديس مباحث عقائد الأيمان بالله، فقال :" هو الموجود الحق لذاته ، الذي لا يعقل وجوده العدم، فهو القديم الذي لا بدية لوجوده، وهو الباقي الذي نهاية لوجوده، لقوله تعالى :"أفي الله شك فاطر السموات والأرض" . فالله تعالى هو الموجود الذي سبق وجوده كل وجود، فكان تعالى وحده ولا شيء معه، ثم خلق ما شاء من مخلوقاته[24].

موقفه مخالفا لما ذهب إليه المعتزلة من قول القرآن كلام الله الحادث أو المخلوق، وكان أحمد في قوله يعبر عن موقف أهل السنة في هذه المسألة على اختلا مدارسها من السلف والأشاعرة والماتريدية، وابن باديس في هذه الصفة كما في غيرها من الصفات ابتعد عن المناهج الجدلية الكلامية، واكتفى بالوقوف عند الآيات القرآنية ، يقول ابن باديس :"ومن صفاته تعالى الكلام الذي يدل على جميع المعلومات، لقوله تعالى:"وكلم الله موسى تكليما". (28)

5 ـ صفة الحياة :

صفة الحياة من الصفات التي بينها الشيخ في كتاب العقائد الإسلامية ، وفي تفسيره لبعض الآيات القرآنية، فقال :"فمن صفاته تعالى الحياة ، لقوله تعالى :" الله لا إله إلا هو الحي القيوم " وقوله تعالى :"وتوكل على الحي الذي لا يموت ". (29)

6 ـ صفة الوحدانية :

وجود الله في العقيدة الإسلامية وجود كامل، يتصف بكل صفات الكمال ويتنزه عن كل صفات النقص،"وما من كامل من المخلوقات إلا وهو جل جلاله الذي كمله، وما من منعم عليه إلا وهو أنعم عليه ، وما من زكى منهم إلا وهو سبحانه الذي زكاه "(30).

والله تعال كما يبين ابن باديس هو : "الواحد في ذاته وصفاته وأفعاله،فلا ثاني له، ولا نظير له ولا شريك له في ذاته. ولا ثاني له ولا نظير له ولا شريك له في أسمائه، ولا ثاني له ولا نظير له ولا شريك في صفاته، ولا ثاني له ، ولا نظير له، ولا شريك في أفعاله، لقوله تعالى :" لو كلن فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما

2 ـ صفة العلم :

يثبت ابن باديس صفة العلم لله تعالى "العلم الذي تنكشف له جميع المعلومات من الواجبات والجائزات والمستجيلات ، فيعلمها على ما هي عليه من الحالات، وتستوي عنده الجليات والخفيات، وذلك لما تدل عليه الآيات كما في قوله تعالى :" وكان الله بكل شيء عليما " وقوله تعالى:" ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير " وقوله تعالى :" ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن، وما يخفى على الله من شيء الأرض ولا في السماء" يقول ابن باديس :"ومن صفاته تعالى العلم الذي تنكشف له جميع المعلومات ، من الواجبات والجائزات والمستحيلات، فيعلمها على ماهي عليه من الحالات وتستوي عنده الجليات والخفيات".[25]

3 – صفتا السمع والبصر :

صفتا السمع والبشر من الصفات التي يثبتها ابن باديس لله تعالى على طريقة القرآن والسنة، فهو يثبت أن الله يسمع ويبصر "وأنه بهذا السمع والبصر تنكشف له كل المسموعات والمبصرات.[26] وذلك اعتمادا على آي القرآن كقوله تعالى :" وكان الله سميعا بصيرا ".ولم يدخل في مجادلات المتكلمين ولا نقاشات الفرق ولا نظريات الفلاسفة، بل اكتفى بذكر الآيات التي تبين اتصاف الباري تعالى بهاتين الصفتين ، وشرح وبيان تجلياتهما في واقع الحيات وفي الوجود [27].

4 ـ صفة الكلام :

صفة الكلام من الصفات التي احتدم حولها النقاش بين أهل السنة والمعتزلة، وبسببها تعرض أحمد بن حنبل إلى ما تعرض حين نوقشت مسألة خلق القرآن ، فجاء

يصفون" وقوله تعالى :" ما اتخذ الله من ولد، وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله على ما يصفون وقوله تعالى :" هل من خالق غير الله "[31]. وغيره من الآيات التي استشهد بها الإمام في بيانه لهذه الصفة. فالله هو الواحد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله ،فلا شريك له ولا نظير في ذاته وصفاته كما تشير إليه الآيات ، واستخلصه ابن باديس

7 ـ صفة القدرة :

يثبت ابن باديس لله تعالى صفة القدرة اعتمادا على ما ورد في القرآن من الآيات الصريحة الواضحة في بيان قدرة الله تعالى وطبيعتها وحدودها،فيقول :" ومن صفاته تعالى القدرة على إيجاد كل ممكن وإعدامه، [32] لقوله تعالى :" إن الله على كل شيء قدير " وقوله تعالى :" وما كان الله ليعجزه من شيء في السموات ولا في الأرض إنه كان عليما قديرا".

8 ـ صفة الإرادة والمشيئة :

الله تعالى يتصف بصفة الإرادة والمشيئة ، فهو فعال لما يريد، وصاحب المشيئة المطلقة في الوجود ، يقول الشيخ عبد الحميد :" ومن صفاته تعالى الإرادة والمشيئة المطلقة في جميع الممكنات فيخصص ما شاء بما شاء، لما نطقت به الآيات وبينته[33]. وقد تميز منهج عرض الدرس العقدي عند الإمام عن كثير من المناهج السابقة ، فما هي تلك المميزات التي تميز بها ؟

مميزات المنهج الباديسي في عرض العقيدة :

إن الناظر في ما تركه ابن باديس من أثر في العقيدة والتفسير يستطيع أن يقف

على بعض الملامح والخصائص التي تميز منهجه في عرض قضايا العقيدة الإسلامية؛ سواء ما تعلق منها بالأسماء والصفات وببراهين وجود الله أو بمسألة القضاء والقدر وغيرها .ومن أهم ما يمكن ملاحظته في هذه الناهية وباتفاق الدارسين والباحثين في خصائص المنهج عنده ما يلي :

أولا : الإثبات والتنزيه :

لقد كان ابن باديس يكره منهج المتكلمين والفلاسفة الإسلاميين في عرض العقيدة ويراه عديم النفع والجدوى ، بل يعتبره المسئول عن كثير من مظاهر الانحراف والخلل في العقائد الإسلامية، لذلك يرى أن الأسلم في أمور العقيدة ومباحث الألوهية هو الإثبات والتنزيه، فيقول:"نثبت له ما أثبته لنفسه على لسان رسوله، من ذاته وصفاته وأسمائه وأفعاله. وننتهي عند ذلك ولا نزيد عليه، وننزهه في ذلك مخالفته أو مشابهة شيء من خلقه.

ونثبت الاستواء والنزول ونحوهما ، ونؤمن بحقيقتهما على ما يليق به تعالى بلا كيف، وبأن ظاهرها المتعارف في حقنا غير مراد"(34).

ثانيا: اعتماد الأسلوب القرآني بدل الأسلوب الكلامي :

آثر ابن باديس اتباع الأسلوب القرآني بدل الأسلوب الكلامي ،وذلك يرجع على عدة عوامل أولها إحساسه العميق وقناعته التامة أنه وحده القادر على إعادة العقيدة الإسلامية إلى سابق عهدها ، وإعادة البريق اللامع الذي كان يميزها.

وثانيها قناعته التامة أنه الأسلوب الوحيد لقادر على إفهام العامة والعلماء من الناس على حد سواء.

ثالثها توصله بعد الدراسة والتحليل لأساليب القدامى في عرض العقيدة أن أسلوب المتكلمين والفلاسفة القائم على النظر الفلسفي والعقلي في بحث المسائل التي تتعلق بالذات الإلهية والغيبيات لا تعدو كونها نظريات عائمة أسهمت على حد بعيد في إيصال العقل الإنساني إلى طريق مسدود. (35)

وابن باديس حين أعرض عن منهج المتكلمين والفلاسفة في عرض العقيدة وبحث مسائلها لم يفعل ذلك لعجزه وعدم قدرته، فهو يملك من المعرفة والعلم واللغة والاطلاع على المنطق وعلم الكلام والمذاهب الاجتماعية والفلسفية ما يمكنه من فعل ذلك لو أراد، ولكنه فعل ذلك لما سبق بيانه.

ويرجع الدكتور سلوادي عقم المناهج الفلسفية والكلامية في عرض العقيدة إلى أن التجربة الدينية تجربة حية تتصل اتصالا وثيقا بالحقيقة وأي نظر فيها ينفصل عن النواحي الوجدانية ، ولا ينبع من داخلية النفس سيفشل حتما في الوصول إلى ماهيتها وحقيقتها. (36)

ثالثا : الجمع بين العقل والنقل في عرض العقيدة والبرهنة على قضاياها:

حاول ابن باديس الابتعاد عن أساليب المتكلمين والفلاسفة في عرض الدرس العقدي والبرهنة على قضايا العقيدة الإسلامية ، وسعى إلى الجمع بين العقل والنقل في الاستدلال على وجود الخالق ووحدانيته وقدرته وعلمه وحكمته ولطفه ورحمته وغيرها، "فبالعقل نستطيع أن ندرك الآيات التي تبرهم على وجود الله ووحدانيته وقدرته الخ. كما نستطيع بالنظر في آي القرآن إدراك بدائع صنع الله وبعض أسرار خلقه، في ضوء المعارف العلمية والتاريخية ، والتي من دون شك تساعد على إدراك الكثير

من الحكم والخفايا التي تخدم العقيدة والإيمان ، دون أن يجعلنا ذلك ننساق وراء العلم والعقل بلا حدود ولا ضوابط.فالعقل يمكننا من فهم الآيات وترتيبها وسوقها متناسقة للبرهنة على وجود الله وصفاته ، وتقديم الإجابات على ما يجول في خواطر الناس من تساؤلات واستفسارات، وما يعرض لها من شكوك وأوهام، ويمكننا من إدراك وفهم معاني هذه الآيات، في حدود ما أتيح له من المجال وما أعطي من القدرة[37].

وبهذه الطريقة استطاع ابن باديس بسط العقائد وعرضها بمنهج استدلالي يجمع بين الآيات القرآنية والوظائف العقلية وقدراته الاستدلالية من الآيات القرآنية،دون أن يستخدم الأساليب المنطقية الكلامية الجافة والعقيمة التي لم تعد صالحة في نظر الكثيرين لهذا العصر.

الأسباب والمسببات عند ابن باديس:

الأسباب والمسببات من المباحث التي أثارت جدلا في الفكر الإسلامي قديما ولا يزال إلى اليوم يترد صدى هذا الجدل والنقاش لأنه مرتبط بأصل من أصول الإيمان هو الإيمان بقضاء الله وقدره.

وترجع أصل المشكلة إلى وقت المعتزلة والأشاعرة إذ فرقت بين الفريقين، ثم ظهر فريق ثالث هم المتصوفة واتسعت الهوة بعد ذلك واشتد الخلاف إلى أن بلغ مبلغا كبيرا عند كل من الغزالي وابن رشد.

ومنذ ذلك التاريخ اعتنى ابن رشد بفكره السببية ودرسها بعناية وقدم ما يراه حلا لهذه المشكلة للخروج من المأزق ؛ الذي آل إليه الفكر الإسلامي بخصوص هذه القضية.

أما ابن باديس فإنه يرى أن الله تعالى أودع في الكون أسبابا تؤدي إلى مسبباتها بمشيئة الله خالق الأسباب والمسببات وأن الموجودات كلها علويها وسفليها مشمولة برحمة الله مغمورة بنعمته.

وكل موجود قد أعطي من التكوين ما يناسب وجوده وما يتوقف عليه بقاؤه وارتقاؤه سواء كان من عالم الجماد أو عالم النبات أو عالم الحيوان"[38] الأسباب نظام كوني فاعل على الجميع:

ويرى ابن باديس أن الله تعالى جعل نظام الكون قائم على الأسباب والمسببات وأن هذا النظام عام لا يميز بين البشر على أساس الإيمان أو عدمه"فمن تمسك من البشر بالأسباب بلغ بإذن الله إلى مسبباتها بقطع النظر عن كونه مؤمن أو كافرا صالحا أو طالحا فليست هذه السببية التي أودعها الله في الكون وقفا على قوم دون قوم، فكل إنسان سواء آمن أو لم يؤمن قادر على استخدام هذه القوانين الكونية للوصول إلى تحقيق غايته العلمية، لكن شرط أن يحصل المعرفة اللازمة لاكتشاف هذه القوانين وكيف يمكن تطبيقها"[39].

ويرى ابن باديس على خلاف الفلاسفة أن النظام الكوني البديع لهو من صنع الله الذي خلق العالم ويرعاه بحفظه وأن رحمة الله وعدله جعلت هذا النظام في خدمة البشرية جمعاء، فأسباب الحياة والعمران والرفاهية مبذولة لجميع الناس بفضل الله ورحمته ومن تمسك بها على بينة من أمره انتهى إلى نتائجها، وهذا ما يؤكده بقوله:" إن الأسباب الكونية التي وضعها الله في هذه الحياة وسائل لمسبباتها موصلة بإذن الله تعالى من تمسك بها إلى ما جعلت وسيلة إليه بمقتضى أمر الله وتقديره وسنته في نظام

هذه الحياة والكون ولو كان ذلك المتمسك بها لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر ولا يصدق بالمرسلين"[40].

الأخذ بالأسباب من مقتضيات الإيمان:

ويرى بن باديس أن الأخذ بالأسباب التي تؤدي بالنتائج وفق النظام الكوني البديع الذي أودعه الله في الكون والحياة لا يتعارض من مطلق مع مسألة الإيمان بالقضاء والقدر لأن الله تعالى هو خالق الأسباب والمسببات والمستقبل أمر غيبي يعلمه الله لذلك نحن ما علينا إلا أن نعمل ونوفر الجهد اللازم، والعمل الدنيوي والأخروي فكل إلى الله تعالى، فنحن مطالبون فقط بالعمل ولبيان هذا الأمر يقول: الشرع معلوم لنا وضعه الله لنسير كمال العلم والإرادة من صفات ربنا فالقدرة من دائرة الاعتقاد والشرع في دائرة العمل وعلينا أن نعمل بشرع الله ونتوسل إلى المسببات المشروعة بأسبابها كتوصلنا للنسل بالزواج وللزرع بالحرث والعلم بالتعليم وهكذا مع الإيمان بالقدر، ونؤمن بسبق قدر الله فلا يكون إلا ما قدره منها"[41].

ويمتاز تفسير ابن باديس للسببية أي لاطراد القوانين بالنسبة لجميع البشر بأنه تفسير خلقي يرفع من قيمة الإنسان ويعلى من شأنه ، وهذه روح علمية مؤمنة متواضعة، تخالف نظرة الفلاسفة أمثال برتراند راسل وغيره.

ترك الأسباب عمل مناف للإيمان:

لقد توصل ابن باديس إلى حقيقة واضحة جلية أكدها له الدين والعلم فيما يتصل بقانون السببية وارتباطه الشديد بالواقع والحياة، فدعا الناس عامة والمؤمنين خاصة إلى ضرورة مراعاة هذا القانون الإلهي والأخذ بالأسباب فيما يرجونه من عمل.

"ويبين أن من يظن أن ترك الأخذ بالأسباب نوع من الإيمان العميق بالله والاعتماد عليه؛ إنما هو رجل يسيء فهم دينه لأن من يترك الأسباب من المؤمنين سوف يكون شقيا في الدنيا وإن كان هو من الناجين في الآخرة، فسوف يؤاخذ على تقصيره في استخدام العلاقات السببية التي وضعها في متناول يده في الدنيا، فلم يشأ أن يستخدمها جهلا أو كسلا"[42].

ويرجع سبب تقدم المسلمين في الماضي إلى عنايتهم الشديدة بالأخذ بالأسباب، فهم لم يتقدموا إلا عندما "أخذوا بأسبابها كما أمرهم دينهم. كما يعزو تأخرهم وانحطاطهم إلى نكوصهم عن مراعاة قوانين السببية، فقد تأخروا حتى كادوا يكونون دون الأمم كلها بإهمال تلك الأسباب، فخسروا دنياهم"[43]، وخالفوا مرضاة ربهم، وعوقبوا بما هم عليه من الذل والهوان والانحطاط.

إن ابن باديس وهو يقرر ضرورة الإيمان بالسببية ووجوب الأخذ بها فاستخدامها من العلوم والصناعات والحياة لا يتسنى أن يذكر الإنسان بضعفه وحاجته إلى ربه، لأنه لا ينال حاجاته إلا بتوفيق من الله تعالى فالأخذ بالأسباب يجب أن يقترن بالإيمان بالله والاعتماد عليه لأن الإيمان بالله لا يتنافى مع فكرة الأخذ بالأسباب، بل العكس يفعلها لأن الله هو الذي خلق الأسباب ويسرها للإنسان.

"ولذلك يربط ابن باديس ربطا محكما بارعا بين فكرة علمية حديثة وبين عقيدة إسلامية جمع فيها الإسلام بين تكريم العقل ووجوب تواضعه حتى لا يضل الإنسان في الإعجاب بنفسه وعقله، وينحرف عن طبيعته وإنسانيته"[44] كما هو حاصل اليوم في حياة الإنسان في ظل الحضارة المعاصرة التي تمجد العقل والإنسان وتدفعه إلى

الانحراف.

القضاء والقدر وحرية الإرادة:

مسألة القضاء والقدر وحرية إرادة الإنسان قضية طالما أثير حولها النقاش والجدل، وتباينت حولها الآراء، واختلفت المواقف.

وحين تصدى ابن باديس لهذه المسألة الشائكة "لم يشأ أن يدخل في مناقشة مختلف الآراء التي دارت بين أهل الجبر المحض، والقائلين بحرية الإنسان واختياره من جانب وبين المعتزلة من جانب آخر"(45) لأن هذه المناقشات انزلقت بأهل الفرق والمذاهب إلى المهاترات.

وإنما سلك الأسلوب البسيط الواضح البعيد عن التعقيد فاتجه إلى الكتاب والسنة فاستقى منهما رأيه.

"فجاء رأيه صريحا اتسم بالبساطة والبعد عن لتكلف والأساليب الملتوية"(46) أقرب ما يكون إلى رأي السلف شديد الشبه برأي ابن رشد والماتريدي.

وأما تعريفه للقضاء والقدر فإنه جاء متوافقا مع منهجه فقد عرفه بقوله: هو تعلق علم الله وإرادته أولا بالكائنات كلها قبل وجودها، فلا وقد قدره الله تعالى أي سبق به علمه وتقدمت به إرادته، فكل حادث فهو حادث على وفق ما سبق به علم الله تعالى ومضت به إرادته"(47).

وخلاصة رأي ابن باديس في مسألة القضاء والقدر وحرية إرادة الإنسان أنه لا جبر في الفكر الإسلامي وأن الاختيار هو الأصل وأن جميع ما في الكون قد شملته نعم الله، وأول هذه النعم هو وجود الموجودات ثم تتنوع تلك النعم الرحمانية بتنوع

الموجودات وأنواعها وتتفاوت تبعا لذلك.

وقد أعطى الله الناس نعمة الوجود ومكنهم من أسبابها وخلقهم متساوون من حيث العقل المميز والإرادة الحرة، فكل إنسان يختار بعقله وهو يعتمد على إرادته الحرة التي لا يمكن أن يكابر أحد من وجودها لكي يختار، ما يرضاه لنفسه وعلى حسب ما أداة الله تفكيره"[48].

حرية إرادة الإنسان عند ابن باديس:

يعتمد ابن باديس في قوله بحرية الإرادة عند الإنسان على جملة من الأمور منها[49]:

– **السيرة:** فقد شرح رسول الله صلى الله عليه وسلم للناس بسيرته الطريق للناس، فهي المصباح الذي ينير لهم الطريق.

– **العقل الذي وهبه الله لهم:** فالعقل حجة الله على خلقه لأنه وهبة لهم وميزهم به وفضلهم على المخلوقات وأنعم عليهم بحرية الاختيار.

– **بعثة الرسل:** فقد بعث الله الرسل إلى الناس كلهم "وجاءتهم كلهم رسل الله بآياته السمعية داعية الله، فاختار كل بغفلة، وهو حرفي إرادته حرية لا يمكن أن يكابر فيها ما اختار لنفسه"[50] فبعثه الرسل في حد ذاته يعتبره ابن باديس دليلا على حرية لإرادة.

– **ما يجده الإنسان في نفسه من القدرة إلى الاختيار:** لقد بين ابن باديس أن الله تعالى دل الخلق برسوله وبكتابه على ما فيه كمالهم وسعادتهم ومرضاة خالقهم، مخافة هذه الوسيلة الأولى التي يمكن الإنسان من الاختيار ثم جعل في الإنسان العاقل ما

يجده في نفسه من التمكن والاختيار" فقامت بذلك الحجة عليه.

فالإنسان بهذه العوامل كلها من بعثة الرسل وأنزل الكتب والعقل وما في الوجدان يستطيع أن يختار بحرية وهذه الحرية لا تتعارض مع علم الله السابق، لأن علم الله السابق لا يؤثر في حرية إرادته واختياره، ويضرب ابن باديس مثالا يقرب به المعنى إلى الأذهان ويزيل الإشكال القائم في أذهان من يحتجون يسابق علم الله لنفي حرية الإرادة لدى الإنسان فيقول: قد يكون الرجل ولدان هو عالم بنفسيتهما وأخلاقهما وسيرتهما ثم يأمر هما يأمر فيه الخير لهما وهو يعلم بما علم من أحدهما أن يمتثل، ويعلم بما علم من الآخر أنه يخالف، ويقول لأهل بيته أن فلانا سيمتثل وإن فلانا سيخالف، فظهر ما قاله، وما علمه في كل واحد، فجازى الممثل على طاعته، وجازى المخالف على عصيانه، فلا شك أن هذا الرجل قد أحسن إلى ولديه، وفعل ما تقتضيه أبوته من النصح والإرشاد، ولا يقدح في ذلك علمه بما سيكون منهما، لله المثل الأعلى فقد أحاط بكل شيء علما، نعلم من سيطيعه ومن سيعصي، ولكنه الحكم العدل فلم يكن ليجازيهم على سابق علمه فيهم الذي لا دخل لهم فيه بل جعل جزاءهم يعد إقامة الحجة عليهم بما يكون من اختيارهم ليكون جزاؤهم على ما عملوا وما قدمت أيديهم، وما لهم دخل فيه بالكسب والاكتساب"[51].

الحسن والقبح ومكانة العقل:

على الرغم من أن ابن يعتمد في منهجه على الكتاب والسنة فإنه لم يهمل دور العقل ومكانته كما فعل معظم أتباع المنهج السلفي بل جعل العقل بما يدركه من العلاقات والروابط وسيلة من وسائل الاستدلال والمعرفة والإدراك، ومن تم تطرق إلى

مسألة الحسن والقبح في الأفعال ودور العقل في ذلك.

هذه المسألة التي أسأله الكثير من الخير وأخذت جهدا كثيرا من الفلاسفة وعلماء الكلام منذ القرون الأولى للإسلام وذهب كل فريق مذهبا معينا.

أما ابن باديس فإنه يقرر بادئ ذي بدء بأن حسن الطاعات وقبح المعاصي مركوز في العقول وأن رحمة الله أنه أعطى للعقل الإنساني قدرة يميز بها بين القبيح والحسن أي بين الرذيلة والفضيلة"[52] وهذا فضل الله على الإنسان حتى "يسهل عليه أتباع الشرائع الله أوحى الله بها إلى رسوله".

ويتمكنون من إدراك الحكمة من النهي والتحريم والغاية من الإباحة هذا من جهة ومن جهة أخرى يكون الثواب والعقاب قائم على أساس الاختيار.

ابن باديس كما يرى الدكتور محمود قاسم يقول بالقبح والحسن الذاتيين في الأفعال، مستنبطا رأيه هذا من قول ابن باديس "والمحاسن محبوبة لله، أمر بها، ويثيب عليها، ويرضى عن فاعلها، والمقابح مبغوضة لله تعالى، نهى عنها ويعاقب عليها، ويسخط على مرتكبها"[53] وفي هذا الرأي يخالف ابن باديس متكلمي الأشاعرة الذين يقولون بأن الحسن ما حسنه الشرع والقبيح ما قبحه وأن الفعل ولو كان في العقل حسنا وقيمه الشرع يكون قبيحا.

ويؤكد محمود قاسم أن رأي ابن باديس في هذه المسألة واضح كل الوضوح لأنه يقرر" أن ما أمرهم اله هو الحسن المحبوب، وأنّ ما نهاهم عنه هو القبيح المبغوض، تعلموا من ذلك أن أوامر الشرع ونواهيه هي على مقتضى العقل الصحيح والفطرة السليمة، وأنه تعالى لا يأمر بقبيح، ولا ينهى عن حسن، وفي علمهم هذا ما يحملهم على الامتثال

ويرغبهم فيه"[54].

ويتسق رأي ابن باديس هذا مع ما قرره أن العقل يميز بين الحسن والقبح الذاتيين اللذين يفترقان بناء على أصول ثابتة مغروسة في نظر الإنسان.وإن الشرع يساند العقل في هذه الناحية، ويعاونه في التطبيقات الفرعية على الأصول الثابتة فيبين له الفروق الدقيقة التي يعجز تاعقل عن الاهتداء إليها . ومن الأمثلة التي يتجلى فيها هذا الأمر الإحسان إلى الوالدين فهو أمر حسن بإدراك العقل لكن تفاصيل عملية الإحسان لا يهتدي إليها العقل وحده ، بل يحتاج إلى تشريع لا يكون إلا بالشرع[55].

هذه هي أهم الملامح التي امتاز بها منهج الإمام ابن باديس في دراسته للعقيدة الإسلامية ،وعرضه لقضاياها ،في تقديري، وقد حاولت قدر الطاقة وغاية الوسع الإلمام بها، واستخلاصها وبيانها لما تتميز به من الأصالة والعمق ولحاجتنا إلى معرفتها والتأسي بها.

المراجع

- ابن باديس عبد الحميد: مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، وزارة الشؤون الدينية، ط1، 1982.

- ابن باديس عبد الحميد: العقائد الإسلامية، دار البعث، قسنطينة.

- د.محمود قاسم: الإمام عبد الحميد بن باديس الزعيم الروحي لثورة التحرير، دار المعارف، القاهرة، طII..

- حسن عبد الرحمان سلوادي: عبد الحميد بن باديس مفسرا، المؤسسة

الوطنية للكتاب، 1988.

- د.تركي رابح عمامرة: الشيخ عبد الحميد بن باديس، رائد الإصلاح والتربية في الجزائر، المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع.

- ابن رشد :مناهج الأدلة في عقائد الملة .دار الآفاق الجديدة بيروت، ط1، 1981م.

الهوامش

1 -حسن عبد الرحمن سلوادي ابن باديس مفسراص76.

2 -ابن باديس: التفسير: ص158.

3 -حسن عبد الصمد سلواني: ابن باديس مفسرا، ص77.

4 -ابن باديس: المرجع السابق: ص178.

5 -ابن رشد : مناهج الأدلة. ص51، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط1، 1982.

6 -ابن باديس: التفسير، ص228.

7 -ابن باديس : المرجع نفسه نفسه، ص158.

8 -حسن عبد الرحمن لوادي: ابن باديس مفسرا: ص79-78.

9 -ابن باديس: التفسير، ص158.

10 -ابن باديس: نفسه، ص178.

11 -ابن باديس: أصول الدعوة: وزارة الشؤون الدينية، 1993.

12 -د حسن الترابي : الصلاة عماد الدين : ص7-6، دار العلم، الكويت، ط4، 1983.

13 -حسن عبد الرحمان سلوادي: ابن باديس، ص81-80.

14 -ابن باديس: التفسير: 528.

15 -ابن باديس: التفسير، ص528.

16 -د.عبد المجيد النجار: الإيمان أثره في الحياة ، ص110.

17 -د عبد المجيد النجار : المرجع السابق تفسه ، ص112.

18 -رشيد الداودي: رجال الإصلاح ص114، دار المغرب العربي، 1973، تونس.

19 -حسن عبد الرحمان سلوادي: ابن باديس مفسرا: ص83.

20 -ابن باديس: العقائد الإسلامية: ص45.

21 -د عبد المجيد النجار : الإيمان، ص112.

22 -د بو الصفصاف عبد الكريم : حركة محمد عبده وعبد الحميد بن باديس ، ج 2 ، ص 440.

23 ـ المرجع نفسه ، ص 440.

24 ـ ابن باديس : نفسه ، ص 67 – 68.

25 ـ انظر ابن باديس : العقيدة ، ص 76 وأبو الصفصاف : نفسه ، ص 440.

26 ـ ابن باديس : العقائد الإسلامية ، ص 76 .

27 ـ بو الصفصاف : نفسه ، ص 441 .

28 ـ ابن باديس : نفسه ، ص 77 .

29 ـ المرجع نفسه ، ص 75 .

30 ـ أبو الصفصاف : نفسه ، ص 442 .

31 ـ ابن باديس : المرجع نفسه ، ص 77.

32 ـ ابن باديس : نفسه ، ص 75 ، و أبو الصفصاف : نفسه ، ص 442 .

33 ـ ابن باديس : نفسه ، ص 75.

34 ـ نفسه ، ص 71.

35 ـ انظر سلوادي : ابن باديس مفسرا ، ص 83 .

36 ـ انظر سلوادي : نفسه ، ص 83 .

37 ـ انظر أبو الصفصاف : نفسه ، ص 444 .

38 –د تركي رابح: ابن باديس رائد الإصلاح، ص202.

39 –د.محمود قاسم: عبد الحميد بن باديس: ص96.

40 –ابن باديس: التفسير، ج1، ص82" . وزارة الشؤون الدينية.

41 –ابن باديس: العقائد الإسلامية، ص92.

42 –ابن باديس: التفسير: ص66.

43 –ابن باديس: التفسير: ص78.

44 –د.محمود قاسم: الإمام عبد الحميد بن باديس، ص98.

45 –د.محمود قاسم: الإمام بن باديس: ص103.

46 –حسن عبد الرحمن سلوادي: ابن باديس: ص89.

47 –ابن باديس: العقائد الإسلامية : ص

48 -د.محمود قاسم: المرجع السابق، ص104.

49 -د.محمود قاسم: المرجع السابق: ص104.

50 -ابن باديس: التفسير: ص79.

51 -ابن باديس: التفسير ، ص377.

52 -انظر: ابن باديس: التفسير: ج8، ص128.

53 -ابن باديس: نفسه، ص147.

54 -ابن باديس: نفسه: ص147.

55 -انظر: محمود قاسم: الإمام عبد الحميد بن باديس: ص109.